شمس النهار

مسرحية بقلم توفيق الحكيم

***

نشر توفيق الحكيم في جريدة الاهرام (1) مسرحية « شمس النهار » التي افتتح المسرح القومي بها موسمه الاخير . وهي تقع في ثلاثة فصول وخمسة مناظر .

وشمس النهار هي بنت السلطان نعمان التي رفضت ان تتزوج من يتقدم اليها الا بشرط ان يفتح الباب امام جميع الناس ، وتقوم باختيار من تراه اهلا لها من الخطاب .

ولا شك ان هذا الموقف جاء بمثابة احتجاج على الحياة في القصر التي تتضح لنا منذ رفع الستار . لقد بلغ الفساد في الدولة اوجه . فالوزير لا يعتمد على مرتبه الرسمي وحسب ، بل يأخذ كل ما يستطيع اخذه ، طلبه لحياة المتعة وسد احتياجات الاسرة . وهو ليس الوحيد ، فان المملكة برمتها من كبارها وصغارها تتخذ نفس الاسلوب .

الوزير ـ ... وانت يا مولاي الذي اردت ذلك .

السلطان ـ اردت ماذا ؟

الوزير ـ قلت : هذه هي المرتبات الرسمية . وبعد ذلك كل واحد وشطارته ...

فكان السلطان اس البلاء المنتشر في المملكة .

وقد كان هذا السلطان يعاني من مشكلة لا يجد لها حلا ، شغلت معظم الفصل الاول . هذه المشكلة هي ابنته شمس النهار التي لا يغريها في الزواج ، كاختيها من قبل وكل بنات السلاطين ، مال او جاه . لقد صممت على ان تقف في مواجهة هذا العالم الكاذب العقيم ـ كما وقفت انتيجون انوى مع الخلاف ـ تصنع حياتها بنفسها حتى اضطر السلطان الى الرضوخ مرغما .

وكانت الاميرة تسأل كل من تقدم اليها سؤالا واحدا يسيرا قررت انه لا يمكن ان تهب حياتها لاحد دون ان تعرف منه الاجابة عليه . هذا السؤال : « ماذا انت صانع بي اذا صرت زوجتك ؟ » . وكل من فشل في الاجابة يجلد ثلاث جلدات .

وما اجمل الردود التي قيلت لها واروعها ، ستعبد ، ويلبى كل طلباتها ، ويشاد لها قصر على عمد من المرجان في جزيرة واق الواق ، وتوضع في العينين وتحمى بالرموش ..الخ فلم تكترث بشيء من هذا القبيل على الاطلاق ، ووقفت على الارض الصلبة أزاء الاحلام المحلقة ، مما اثار الظن بان الاميرة تعبث . والحقيقة انها جادة تماما في البحث والاكتشاف .

ثم تجد بغيتها في شخص حقير يدعى قمر الزمان ، لا يخطر على البال انه سينال القبول . توفر فيه بعض نزوعات شمس النهار من اعطائها حريتها كاملة ومسئوليتها واثبات وجودها . وقد كونت مواقفه معها الحدث الرئيس في المسرحية . رجل ذكي يقف هو الاخر على ارض الواقع الصلبة . شديد الشبه من نواح بشخصية « ابي الفضول » في مسرحية الفريد فرج « حلاق بغداد » التي عرضها المسرح القومي في الموسم الماضي .

الا ان ابا الفضول الذي ملأ جنبات المسرح اشد جسامة من قمر الزمان (وشمس النهار) ، واشحذ وجدانا . وفي صراعه مع العالم الخارجي كان محتدما .

اما قمر الزمان فصورة جميلة لابن الشعب الجريء « الفهلوي» بكل كبريائه وطموحه ، الذي لا يحسن شيئا ويحسن كل شيء . لا يملك من الدنيا الا نفسه ، ولا يغريه الجاه او الجمال او النفوذ . يؤمن باهمية ما يصنعه الانسان بيديه . يبدو لنا بسيطا في مظهره ولكنه ثري الاعماق ، سخي النفس ، يفيض بالحيوية .

لعل قمر الزمان ، في اقرب التفاسير ، ان يكون نموذجا للرجل الاشتراكي ، وشمس النهار نموذجا للمراة في المجتمع الجديد ، صاغهما توفيق الحكيم بقلم الفنان الملهم اكثر من قلم المفكر العميق الذي تصطرع شخصياته اثناء احتكاكها بالحياة وتصطدم الافكار فيما بينها .

لم يات قمر الزمان ككل الذين اتوا طمعا في الاميرة ، انما لكي يستخدم حقه المشروع . ومع اقتناعه بان الحاكم لا بد ان يخرج من المحكوم ، فانه يرفض ـ في حالة زواجه بالاميرة ـ ان يشتغل حاكما ، لانه لم يكن محكوما جيدا .

ولو اننا عدنا الى « السلطان الحائر » لوجدنا ان نفس المشكلة طرحت على لسان الوزير (مكتبة الاداب ومطبعتها بالجماميز ص٥١) وهي ان « العبد لا يجوز له ان يحكم شعبا حرا » .

ايماءة صريحة في « شمس النهار » لحالة الشعب من جراء مظالم الاستعمار التركي والاوروبي ، وانتهاب الحكام حقوقه ، ومعيشة الشظف في الظلام ـ تدحض وقائع التاريخ راي الحكيم فيها .

ان قمر الزمان يؤمن بان قيمة الانسان مرهونة بعمله ، لذلك فهو يوجه نفس السؤال الى شمس النهار : ماذا هي فاعلة به انتزوجها لانه لا يعدو ان يكون حفنة من تراب ، يستطيع الصانع الماهر ان يصنع منه انسانا . باعتبار انه الان حفنة من تراب يرفض الزواج الى ان تتم له انسانيته اولا .

وليس ثم طريق الى تحقيق ذلك سوى ان تترك شمس النهار التي منحها الثقة قصرها خلف ظهرها ، وتخرج مثله الى الحياة ، تكتشف طريقها بسيف جندي بسيط وثيابه .

وتبدا في الفصل الثاني رحلة شمس النهار مع قمر الزمان ، فنلقاهما في الخلاء على مقربة من نهر واشجار ، العالم حول شمس

(1) الملحق الاسبوعي لجريدة الاهرام . اعداد : ١٨،١١٤ سبتمبر ١٩٦٤

لاول مرة جديد بهيج ، يتعاونان لئلا يكون احدهما عالـــة على الاخر.

وخلال هذا المنظر ينثر توفيق الحكيم ، بشكل يقترب من المناظرة المباشرة كثيرا من افكاره التي يمتليء بها الوقت الحاضر . ان مسرح الحكيم كما هو معروف مسرح افكار في المحل الاول ، اكثر منه مسرح حياة ، رغم انه لا يمكن انكار ان شخصياته التي تتنادى دائمـا بالحب مجبولة من لحم ودم . وبسبب هذه الافكار تخلف قراءته تاثيرا اعمق.

من هذه الافكار ضرورة اشتغال المراة بجوار الرجل التي تبدت في اشتراكهما في اعداد الطعام ، وما أهتدت اليه شمس من ان السيف البتار يمكن أن يستخدم في صيد السمك من النهر . اي تحويل اسلحة الدمار الى ادوات مفيدة . وقدرة الانسان على التكيف مـع الظروف وتحويل العلم النظري الى عمل . وان ما يصنعه الانسان جزء منـه . ومسئولية الفرد الكاملة عن الغير .. افكـار تنبع آنـا مـن الاحداث نتلقاها تلقيا عذبا ، وتتوجه فـي آن اخر الـى النظارة اكثر مما تتوجه الى الشخص الاخر

وبينما هما على هذا الحال يقترب شخصان ، فيسرعان بالاختفاء . ومن مكمنهما القريب يريان معهما صرة يريدان تخبئتها تحت الشجـرة لاقتسام ما بها . وبعد ضبطهما يعرف قمر الزمان وشمس انهمـا ملاحظ خزانة الملك حمدان ومساعده ، وانهما ليس الوحيدين فـي دولة حمدان السارقين ، فكل واحد في هذه المدينة في يد الاخر بما في ذلك الملك الذي يؤول اليه في النهاية كل شيء « جيوبنا كلهـا في يد الامير » ، مما يدفع بالحدث الدرامي الى الامام ويطوره ، ويبـرز ملامح شخصية شمس أوضح ما تكون ، وبكامل كيانها .

اصرت شمس النهار وقمر الزمان اما على رد المـال الـى الخزانة، والتستر على زلة المتهمين (مقابلة الشر ببعض الخير ـ احـدى افكار الحكيم) ، واما على تسليمها الـى العدالة ، وبالطبع لا تجدي اغراءات الملاحظ ومساعده لهما باقتسام الغنيمة لانهمـا نذرا نفسيهما لاداء الواجب الذي ترى شمس ان مثوبته تكمن في الجواهر التي تحلي دخيلة الانسان ، تشع وتضيء اذا استمع الى صوت الضمير او صوت العقل .

بذلك يسوي الحكيم بين الاثنين ، الضمير او العقل ، في تحقيق الحياة المثلـى .

ويتالف الفصل الثالث من منظرين ، تدور احداث المنظر الاول في قصر الامير حمدان الذي لا تختلف مملكته عن مملكة النعمان التي تركتها شمس ضائقة الصدر .

في هذه المملكة الجديدة نجد نفس الفساد ، بالاضافة الى مشكلة السأم التي يعانيها الامير من حياته الرتيبة : ما عاد يستطعـم طعاما او يبتهج لترفيه ، رغم كثرة ما لديه من الكنوز : « المال يملا خزائني، والحياة قاسية بالنسبة لي ايضا » . ان الامير ، وهو من هو ، يعاني من الوحدة ، فقد كان لا يزال عزبا ، ولن يطلب زوجا الا شمس النهار التي تناهى اليه اخبارها .

ولما كان غير واثق من قبولها ، راح يسائل تابعه في حيرة القلق اي شيء يمكن ان يغري المراة لينفذ به الى قلب هذه الاميرة العنيدة؟

وها هي شمس النهار تاتيه على قدميها مع قمر الزمان وتقـف بنفسها على بعد ذراع منه ، في ثياب جندي مدجج بالسلاح وبأسـم مستعار هو بدر ، كي يقرا العدالة برد ماله المختلس . فعم يسفر هذا اللقاء ؟

يقع بدر موقعا حسنا لدى الامير بسبب رجاحة عقله . لذلـك يعينه حارسا خاصا له ليفضي له بحقيقة الاميرة التي ادعى انه يعمل عندها حارسا ـ الامر الذي يوقظ في قمر الزمان طبيعة الانسـان ، برفيقته على نحو صوفي بريء ، وان عواطف الانسان لا يمكن قهرهـا بحـال .

اما المنظر الثاني فنرى الامير حمدان وقمر الزمان وشمس النهار معا في الخلاء ،وقد اشتد التنافر بين الاولين بحيث لم يعد الواحـد بمستطيع تحمل الاخر . وبعد اتجاه الامير حمدان الى قصـر النعمان من اجل ابنته ، ينشب عتاب حام بين قمر الزمان وشمس النهـار ، نفهم منه أن قمر هو ، في واقع الامر ، الذي صنعها ، لا هي التـي صنعت منه انسانا .

اجل ، فلولاه ما برحت شمس النهار قصرها ، ولما احتكـت بالعالم ونالت هذه الخبرة : (الشعب اذن هو الذي يصنع الحاكـم)

ولكن قمر الزمان يفزع من اهتمام شمس بالامير حمدان ، ويصفه وصفا يائسا .

قمر ـ نعم .. الاميرة والامير .. ها هي الاوضاع قد عادت الى اصلها. وتتهدم في لحظات كل اجتهاداته .

وهذا غير صحيح . ذلك ان الاميرة محيرة اللب بين الاثنين :الامير « الذي صنعته بيدي ، كي يصنع بدوره بلده ويغير شعبه » ، وقمـر الذي لا تعرف عنه شيئا .

عندئذ يكشف قمر لها عن حقيقته المرة . انه بلا انساب ينتمـي اليها ويفتخر بها .

قمر ـ (يلتفت اليها بعنف) اولا اسمي ليس بقمر ... ولا قمر الزمان .. ولست بامير . ولا شيء على الاطلاق . ولا اعرف من هو ابي ، ولا من هي امي . نشات بين الناس في حي بسيط . .الخ .

فماذا يكون وقع هذه الكلمات على الاميرة ؟ لا تزداد الا تعلقا به وهياما ، وتمسكا برباط الزواج . غير انه يابى ان يستسلم للعاطفة ، هو الاخر ، ويشردها معه طول حياته . يأبى ان تهبط شمس من عليائها الى الحضيض ، كانه بيجماليون يستنكر نقص الحياة التي نبضـت في تمثاله الجميل جالاتيا على كمال المثال (نفس المعنى الذي يتـردد في كثير من اعمال الحكيم) ، ويوجهها برواقيته ، امام الاختيار الصعب بين الواجب والعاطفة ، الى اصلاح بلدها .

شمس ـ وسعادتنا ؟

قمر ـ فلنفكر في سعادة الاخرين .

وهو احد الدروس التي سبق ان علم شمس النهار اياه ، ترد فـي حوار مركز .

بهذه التضحية ينتصر قمر الزمان على نفسه ايضا . وتنتهـي المسرحية باستجابة شمس النهار الى صوت العقل لا القلب ، وايثـار الوطن على نفسها . (١)

ارادت شمس في البدء ان تمارس حياتها على نحو مغاير ، يكاد يكون مثاليا من جهة تضاده مع البيئة وفي مضمونه ، فقابلتها قابلت واصطدمت بالواقع ـ لم يكن الصدام عنيفا ـ ، وحين جابهت عالما سيئا في الداخل والخارج ، تغلبت عليه بفضل قمر الزمان ، ثم اتجهت الى القصر ليتاح لها الاصلاح ، وان كنت ارى ان عودتها الى القصر ، في هذه المسرحية ، دليل على انها لم تستطع ان تتحدى عالمها المحدد بالزمان والمكان . ويمكن ان نرى نفس المعنى في افتراق قمر عنهـا « انا لا استطيع الحياة في القصور » . وقـد ظلت اطـراف الصـراع الباطني اساسا في حالة تعادل .

وكما عاد « اهل الكهف » في هدوء الى ماواهم بعد ان انكـروا الحياة والناس من حولهم ، تعود شمس النهار ايضا من محاولـة التغلب على عالمها ، ولكن بوازع مختلف ، وفهم ارحب ، وارادة اكبـر من ذي قبل .

ويفترق البطلان الحبيبان : شمس النهار وقمر الزمان ، علـى ابتسامة حزينة ، يبقى اساها عالقا بنفوسنا امدا طويلا لاننا احببناهما معا من خلال معايشتنا لهما ، ومخالطة مشاعرهما النبيلة .

القاهرة

نبيل فرج

---

(١) اجرى توفيق الحكيم تغييرا في النص المقدم للمسرح القومي. وهو خارج عن حدود هذه المقالة .

البلد البعيد الذي تحب

قصص بقلم ديزي الامير

منشورات دار الاداب ، بيروت ، ١٤٤ ص

★★★

اول مجموعة تضم المنشورات الاولى لقاصة عراقية ظهرت حديثا على مسرح الادب ، تصدرها دار الاداب ، امر جدير بالفخر والاعجاب والاهتمام .

لذلك فان ابسط ما يمكن ان يقدمه ناقد هو التقييم الموضوعي غير المسربل بالبخور ، ولست مبخرا اذا قلت ان القاصة الاميرة ذات قلم ثابت يبشر بالخير ، بالرغم من المباشرة التي بررتها الاستاذة المقدمة سميرة عزام حيث قالت « حين تكون المباشرة في كل مرة اسلوب الفنان في مواجهة النموذج الفني بالعالم ،يغطي زعاف الذاتية على ابعاد الموضوع » .

وليست السردية المباشرة نقيصة او عارا ولكنها مرحلة نطالب بان تتجاوزها قصصنا، لانها طريقة لا تحمل عنصر الجذب المتوتر بالنسبة للمؤثر « الكاتب » والمتأثر « القارىء » بل تحاول ان تجعله مرتاحا لايواكب عملية الخلق الفني والتطور الدرامي للحدث بانفعال متاثر .

انك تلمس الانونة في كل اقاصيصها ، تلمس اناقة النساء وهواجسهن الخاصة . الخوف والوحدة والرصد الدؤوب الحلو المكتف للكلمات في « ضباب » ومشكلة العنس في « صلاة المائدة » و « شيء جديد » ، وكبرياء المزاة الجريح وخوفها على زوجها في « قرع الطبول » ، والازياء ـ كامر تمهيدي ـ في « العضلة بل العضلتان واعمال البيت الرتيبة في « المرحلة الرابعة » ومشكلة السكرتيرة الازلية في « دفء » و « قرع الطبول » ايضا .

ولكنك تلمس مسألتين هامتين تلقيان اهتماما من ديزي الامير ولهما تاثير كبير عليها ، اولاهما مشكلة الغربة التي نعيشها الان في لبنان ، وقد برز ذلك في « رسالة الى جدتي » و « ضباب » ،وذكرياتها عن كليتها التي تخرجت فيها وهي دار المعلمين العالية سابقا وكلية التربية ببغداد حاليا .

والحق ان قصة « حكاية ابريق الزيت » ومقالة ديزي الامير عن السياب في العدد الثاني من «الاداب» هذه السنة،تلقيان اضواء كافية على حياتها في الكلية ، فبالرغم من ان البطل الصغير سعدون قد برز كممثل لنزعة انسانية لدى البطلة ـ الكاتبة ، وكركيزة للقصة ، لكننا نجد الكاتبة تنطلق لتصور حيانها في كلية التربية ببغداد ،حيث عاشت في وقت كان فيه السياب والبياتي من زملائها ، وكانت التربية نقطة انطلاق تاريخية لتيار الشعر الحديث في العراق على نحو ما يؤكده تفصيلا الاستاذ الناقد محمود العبطة في دراسته عن السياب التي صدرت حديثا .

ان ديزي تصور للقارىء الجامعة وابوابها موهمة اياه بوجود جامعة العراق تمهيدا لبعثرة اشكال شخوصها وتتكلم عن قصة حب من جانب واحد بين كريم وسميرة التي تعنفه امام الجميع ، وتتحدث عن استاذها الضرير وسكرتيره ، وعن شاعر الغزل الذي نظم في«غزة» و « واعدة » وغيرهما ، ثم عن غرفة الطالبات الخالدة في كلية التربية حيث ترصد حركات زميلاتها .. ثم تنطلق بعد ذلك الى الواقع القريب تاركة هذه الذكريات ، فكريم اصبح « صاحب اوسع جريدة انتشارا » وهنا تبرز علامة استفهام ، اما شاعر الغزل « فقد اصبح شاعرا سياسيا بعد ان تزوجت عزة من عميد الجامعة ، فقد قرر شاعر الغزل ان يدخل معترك السياسة ليصلح الاوضاع الاجتماعية ويزيل الفوارق بين الطبقات » وليس الحديث هنا الا عن المرحوم الشاعر العظيم السياب ، فالمعروف انه قد اهتم بالسياسة على اثر فشله المتكرر في حبه لبعض زميلاته ، اما عزة هذه فامرها عجيب ، اذ ان المعروف كذلك ان بدرا كان يحب شاعرة مثلهفضلت ان تتزوج احد اقاربها لعدم وسامة المرحوم السياب اولا ، ولانها تختلف عنه دينيا ثانيا ، ولم يكن لقريبها هذا علاقة بالجامعة .

اما الاستاذ الاعمى فهو الدكتور محمد مهدي البصير استاذ الادب العربي سابقا في كلية التربية « قبل تقاعده » ، والسكرتير هو الاستاذ العبودي ... يكاد الحديث يمسي حديث مناقشات لوقائع تاريخية ، ولكن قصة الاديبة الامير تضطرنا الى ذلك وان كنا نلومها للاسلوب التقريري الذي اتبعته .

ماذا يبقى بعد هذا ؟ تبقى قصتان من اجمل ما ضمت المجموعة اولاهما « صلاة المائدة » التي ترصد الام فيها فوات قطار الحياة الزوجية عند فتاة عانس ، وان كانت تفسيرات الكاتبة في النهاية قد جعلت القارىء يريح دماغه من التفكير ، وثانيتهما قصة « ضباب » التي يتجلى فيها معنى الغربة وبراعة رصد الخوف من التوحد عند الكاتبة .

ولا بد ان نلحظ هنا ان الكاتبة قد تميزت بابتعاد يكاد يكون مقصودا عن المشاكل السياسية وان كانت هناك اشارة اليها في قصة « العضلة بل العضلتان » ، حيث صورت لنا في نهايتها فتاة تدخل المعترك السياسي لان حبيبها قد فعل ذلك ، ولست اريد ان اعلق على ذلك ولكن القول ان هذه الاشارة ـ لانها الوحيدة ـ تحمل دلالة راي القاصة ـ على ما يبدو ـ في دخول المراة الحياة السياسية العامة .

وبعد فهل قلت كل ما اريد عن « البلد البعيد الذي تحب »؟.. اشعر بـ « لا » تنتفض في خاطري ، ولكني استطيع القول في الختام ان ديزي الامير تعد كشفا جديدا في عالم القصة ، نرحب بها ونرجو لها انتعاشا اكثر وفرصا اطيب لبروز كل امكانياتها .

الدغارة ـ العراق — باسم عبد الحميد حمودي

دنيا الله

مجموعة قصص لنجيب محفوظ

★★★

في « دنيا الله » يرافق القارىء نجيب محفوظ وهو يكشف عما يراه فيها . وليس افيد ولا امتع من صحبة انسان دائب البحث عن الحقيقة ملتزم السير في الطريق. وان تجاوزنا المتعة الفردية في هذه الصحبة فان اهم اثارها هي في كونها مساهمة فعالة في تشييد بناء حضارتنا الجديدة في هذا العصر الذي نعيشه نحن ابناء هذا الجيل مع انبعاث امتنا . فالاديب الصادق الملتزم له دور كبير في عملية البناء بما يكشف من حقائق ويطلق من طاقات ويوجه الى الصراط . وتفاعل القارىء مع الاديب هي بداية الانطلاق .

خلق الله الدنيا ، وجعل فيها الانسان خليفة له . فابرز ما في « دنيا الله » هو الانسان اعظم مخلوق في الوجود . والانسان هو موضوع نجيب محفوظ ، واديبنا يقدره حق قدره ويفهمه احسن الفهم ، ومن قلب يطفح بمحبة هذا المخلوق ، وفكر يعمل من اجل اسعاده يجري ادب محفوظ ليفيض بالخير .

ومنذ ان وجد الانسان في « دنيا الله » مزودا بالعقل والقلب واللسان ثارت امامه قضايا عدة. فمن ناحية بحث عن مكانه في هذا الكون الشاسع ، وعندما عرف الموت والميلاد والقدر والقضاء طفق يسأل باحثا عن اسرارها . وهكذا انطلقت اسئلته الخالدة ، من اين ، والى اين ، ولماذا ؟؟؟ ومن ناحية اخرى عاش هذا الانسان في جماعة فاتصل بمن حوله ومر في تجارب علمته ان عديدا من المشاكل تظهر في المجتمعات لتعذب الانسان ، فشرع يبحث عن اسبابها ويحاول وضع حلول لها .ومن ناحية ثالثة نظر الى نفسه وتأمل افعاله بعد ان شعر بضرورة ذلك،وراقب نفوس الاخرين فلاحظ ما تزخر به النفس من عواطف وما تقوم عليه من

ركائز ، ورأى أثر ذلك كله في سير الحياة ، فبدأ يحاول الغوص الى اعماق النفس البشرية باحثا عن حقيقتها.

هذه الجوانب الثلاثة شغلت انسان « دنيا الله » منذ الازل . ومع محاولات البحث المتتابعة تتابع الايام ظهرت اجابات عن الاسئلة وحلول للمشاكل ، فكان الدين وكانت الفلسفة والنظم . وعلى الرغم من تكرر السؤال والجواب فان المحاولات مستمرة وستبقى ما بقي الانسان. ودور الباحث ان يحاول في حدود عالمه ووقته ، ويعرض ما وصل اليه في الاطار الذي يختاره .

وقد اختار نجيب محفوظ القصة كاطار يضمنه تساؤلاته واجاباته ، وقدم لنا في « دنيا الله » اربع عشرة قصة قصيرة يجمعها انها تتناول الانسان في المجالات الثلاثة. ولا شك في انه كان موفقا جدا في تسمية المجموعة « بدنيا الله » لا لان القصة الاولى تحمل هذا الاسم وانما لانه يصلح للمجموعة باعتبارها وحدة . ووحدة المجموعة يشعر بها القارىء حتى انه يخال كل قصة فيها فصلا يتكامل مع الذي يليه .

وقبل ان نتحدث عن مضمون هذه القصص نعرض بالحديث عن اسلوب محفوظ فيها . وخصوصا وان عرض الاسلوب يساعدنا على فهم المضمون .

اول ما يلاحظ على قصص المجموعة ـ وعلى ادب محفوظ عامة ـ ان لها ظاهرا وباطنا ـ ان صح هذا التعبير ـ . فالرمز يكثر فيها ، بحيث ان القارىء يصل الى فهم معين لها اذا اقتصر على معناها الظاهري ثم يلاحظ أنه اذا حاول التعمق متجاوزا اسطح الكلمات ظهر له عالم الباطن الرحيب المختفي وراء الرمز . وبالطبع تختلف نسبة الظاهر والباطن في كل قصة ، فبعضها لا يمكن تحميل معناه الظاهري اي رمز او تفسير ، وبعضها يسير الظاهر والباطن فيه جنبا الى جنب ، وبعضها لا يمكن فهمه اذا اقتصرنا على ظاهره لان الرمز هو مفتاح القصة فيه . وتتضمن هذه المجموعة اكثر من قصة من هذا النوع الاخير ، وابرزها « زعبلاوي » و « ضد مجهول » و « حادثة » . اما النوع الثاني فنراه في « زينة » و « صورة قديمة » و « حنظل والعسكري » . ومن النوع الاول « دنيا الله » و « جوار الله » .

وقد لجأ اديبنا في معالجة مواضيع قصصه الى عدة طرق ، حتى لا يكاد القارىء يجد قصة تماثل اخرى في طريقة معالجتها . وفيها جميعها دلل محفوظ على مقدرة نادرة في كتابة القصة القصيرة وفي اختيار الاطار الملائم للفكرة . وبعض هذه الطرق تستحق الدراسة لجدتها وروعتها ونكتفي هنا بعرض سريع لها .

ففي قصة « الجامع في الدرب » استعمل محفوظ طريقة خاصة يمكن ان نطلق عليها اسم « طريقة المقابلة » ، وهو يعمد فيها الى عرض مجموعتين من اللوحات، تتصل كل واحدة منها بموضوع وبينهما صلة ما ، ويتم الانتقال من لوحة في المجموعة الاولى الى لوحة في المجموعة الثانية وبالعكس حتى يكمل العرض بلوحة مشتركة تكون خاتمة القصة. وهذه الطريقة نراها كثيرا في «السينما» حيث يتبعها كثير من المخرجين(١). وقصة « الجامع في الدرب » تقوم على المقابلة بين امام الجامع وسكان درب بائعات الهوى ، وتنتهي بلوحة تجمع الطرفين .

وفي قصة « الجبار » نجد طريقة اخرى متميزة يمكن ان نطلق عليها اسم « البدء بالنهاية » ، فتبدأ القصة بمشهد هو خاتمتها ايضا ثم تعود الى عرض مشاهد سبقته حتى يتم الوصول الى النهاية. وهذه الطريقة متبعة في الاخراج السينمائي ايضا (٢) .

(١) كأن يأخذ المخرج لقطة لشاب منتش في مشيته يحاول لفت الانظار اليه ثم يتبعها بلقطة اخرى يكون فيها طاووس يتبختر بين اناثه . ومن اكثر المخرجين استخداما لهذه الطريقة في السينما المصرية صلاح ابو سيف . ولو ان نجيب محفوظ لم يقتصر في استخدامه لها في هذه القصة على لوحة او لوحتين وانما على مداها .

(٢) انتشر استخدامها في افلام الاربعينيات ، وقد يكون لها عند السينمائيين اصطلاح خاص .

وفي قصة « زينة » لجأ الكاتب الى طريقة ثالثة عرض فيها ثلاث قصص لا يربط بينها الا وحدة المأساة ووحدة الموضوع بين ابطالها . وعمد الى بدء القصة بلوحة تجمعهم كلهم ثم يتفرقون ليعرض كل قصة على حدة (١) .

اما في قصة « موعد » فيعمد الكاتب الى عرض حال البطل من الخارج كما تراه عين زوجته المحبة . ثم بعد ان يبلغ التشويق درجة عظيمة ينتقل الكاتب الى اطلاع القارىء على الحوار الداخلي في نفس البطل فيكشف عن جوانب من السر ثم يختم القصة بحوار بين البطل واخيه.

وهكذا تتعدد الطرق لتناسب كل واحدة فكرة القصة والغرض منها. وفي جميعها يتميز اسلوب محفوظ بالاصالة والروعة .

وناتي الى المضمون فنشعر بالحيرة بين ان ندرس كل قصة بمفردها وان ندرس المجموعة ككل باعتبارها وحدة ؟ ولعل افضل سبيل هو دراستها باعتبارها وحدة مع ملاحظة ما تنفرد به كل قصة من قضايا .

اول الجوانب الثلاثة في « دنيا الله » هو الانسان في الكون . وهذا الكون العجيب الكبير يثير قضايا الوجود . ولعل من ابرز القضايا التي تشغل الانسان مسألة الموت . فالموت لغز يحتاج الى حل ، وهو بالنسبة لاناس كثيرين شبح يؤرقهم ويخيفهم ، وبالنسبة للجميع مصير ونهاية . وقد يغفل الانسان في غمرة اقباله على الحياة عن الموت ولكنه لا بد عائد لمجابهته بالتفكير فيه اولا ثم بمعاناته .

كيف يحدث الموت ؟ وكيف يتم الانتقال اليه ؟ يقف محفوظ اكثر من مرة في مجموعته ليصف الموت كحادث . فعلى لسان الحاج مصطفى في قصة « جوار الله » يجيب عن التساؤل كيف حدث ؟ بقوله « كما يحدث عادة ، لا غرابة في الامر ، سعلت قليلا ، وبدا انها تحاول ان تتكلم، ثم شهقت شهقة خفيفة ، وخرج السر الالهي » (٢) وموت المجوز في هذه القصة كان متوقعا بعد ان طال احتضارها على الفراش . ولكن الموت قد يأتي فجأة كما في قصة « حادثة » حيث يعبر رجل الشارع والحياة تنتعش فيه . وقبل ان يصف محفوظ الموت يبدع في وصف الحياة « وكان في الستين او نحوها ، طويل القامة نحيلها ، كروي الجبهة والعينين ، مكور الذقن ، واما صلعته فلم يبق فوق مرآتها الا جذور شعر ابيض مثل منابت شعر ذقنه ، .. كان يتمتع بحيوية مرحة ، وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج ، فاشعل سيجارة واخذ نفسا عميقا .. » (٣) وتصدمه سيارة وهو يحاول تجنب اخرى فتبدأ حادثة الموت « ندت عن الرجل صرخة كالعواء ، وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة والواقفين على الطوار وفوق افريز محطة الترام . ورئي الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتارا ثم يهوي فوق الارض كشيء غير ادمي .. ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة ، وكان منكفئا على وجهه ولا يجرؤ احد على لمسه ، واحدى رجليه ممدودة الى اخرها ، والاخرى منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر وقد فقدت فردة حذائها، وتفشاه صمت بخلاف كل شيء حوله كان الامر لا يعنيه البتة » (٤) .. « وند عن المصاب صوت كالزفير المكتوم ، وتحرك حركة شاملة مباغتة ، ثانية واحدة ، ثم غرق في اللامبالاة » وينتهي احتضاره في المستشفى « فقد تحرك الرجل حركة شاملة كالرعشة ، واضطرب صدره اضطرابا متلاحقا محشرجا ، ثم شهق شهقة خفيفة واستكن. » (٥). وقد جاء الموت لاحد شخوص قصة « قاتل » ايضا فجأة بطعنة سكين « لا مهادنة فيها ولا امل ، ندت عن الرجل صرخة خافتة وترنح جسده الضخم مرة ثم سقط » (٦) . وكذلك في قصة « موعد » حيث قتل اخر بصدمة سيارة.

ان نجيب محفوظ يبلغ في معالجته قضية الحياة والموت اعلى الذرى التي وصل اليها الانسان .. ويمثل في افكاره خلاصة ما جاء

(١) وهذه الطريقة ايضا استخدمت في السينما . ومن الواضح ان اديبنا الكبير قد اطلع على هذه الطرق اثناء اتصاله بالعمل السينمائي ككاتب سيناريو لعدد من الافلام .

(٢) ص ٥٣ (٣) ص ٢٠٦

(٤) ص ٢٠٧ (٥) ص ٢١٢ (٦) ص ٢١٢

في تراث امته التي حلت رسالات الاديان آلى بني البشر . ويلاحظ انه يرمز لكل الاعمال الصالحة التي تحيل صحراء الحياة واحة بكلمتين اثنتين هما « باسم الله » ، بينما نراه يعدد الادواء التي تحكم على انسان دنيا الله بالموات .

وترتبط بالموت الذي هو حق على كل انسان مسألة القضاء والقدر وتعاريفهما . ويبرز القضاء والقدر في قصص نجيب محفوظ في محاولته لاستجلاء اسرارهما . ففي قصة « موعد » نجد جمعة انسانا يترقب الموت بعد ان عرف من الاطباءانايامه الباقية معدودة . فنرى زوجته في حوار داخلي رائع تصف التبدل الذي طرأ عليه دون ان تدري سره الحقيقي ، ونراه هو قد اقبل على قراءة كتب الارواح . وهو الذي لم يكن يهوى القراءة . وفي حواره مع نفسه تتكشف لنا ادق خلجات النفس البشرية وهي تترقب النهاية. فكلما فكر في ايامه الباقية ود لو يأخذ من الحياة كل شيء ولكنه يرتد لانه ايضا لا يستطيع طلب شيء « وهنا يستوي كل شيءولاشيء » . ويلجأ للشراب ولمطالعة كتب الارواح، سعيا وراء طمانينة ولو تكن وهمية ، وسلام ولو على غير اساس . حتى ايمانه الراسخ انهزم امام الموت (1) . ويذهب جمعة لاخيه يلاقيه في قهوة ماتاتيا ليكشف له سره ويعهد اليه بزوجته وابنته . ويعد حوار يفرفان ويستقل جمعة سيارة دارت به دورتها ثم اضطرت الى التوقف امام زحام تجمهر حول حادثة وقعت فتفادى الاوتوبيس الزحام ولم يدر جمعة ان ضحية الحادث هو اخوه الذي كان يجلس معه في القهوة .

ماذا يريد محفوظ ان يقول لنا وهو يعرض عجائب القدر او ضحكاته او مآسيه ـ ويختلف التعبير بحسب النظرة اليه ـ ؟ لقد حاول الانسان هنا ان يجابه الموت الذيترقبه ولكن القدر كان يخبيء له مفاجأة جديدة . وقبل ان نحاول تلمس جواب عن السؤال يحسن ان نرى صورة اخرى للقدر .

ففي قصة حادثة تصدم سيارة رجلا في الستين ، وفي عملية البحث عن شخصيته لا يجد الضابط بطاقة تحقيق الشخصية ولكنه يعثر على رسالة لم تغلف بعد « فامل انيصادف فيها ما يمكن ان يستدل بهعلى شخصية الرجل . نظر الى الامضاء ولكنها لم تزد عن « أخوك عبد الله » ـ واختيار اسم عبدالله له دلالته فكل انسان في دنيا الله هو عبد الله ـ فعاد الى رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة الى « اخي العزيز ادامه الله » (2) ويقرأ الرسالة فيجد انها تبدأ بقوله « اليوم تحقق اكبر امل لي في الحياة » وقد كتبت في نفس اليوم الذي صدمته فيه السيارة وقتلته . ولم يملك الضابط نفسه من القاء نظرة على « الوجه الباهت المشوب بزرقة مخيفة ، المغلق كسر ، الجامد كتمثال ذلك الذي تحقق اكبر امل له في الحياة . » وتمضي الرسالة تتحدث عن انه « قد انزاحت عن صدري الاعباء المريرة .. وبعد تفكير قر رأيي على ترك الخدمة .. اما الان فكل شيء بخير وليس في الامكان خير مما كان » (3). فهل هذا هو عبث لاقدار تلعب بنا وتضحك ؟ ان قدر الانسان في مسألة الموت لا يمكن انيقاوم ولا يرد « فاذا جاء القدر ذهب الحذر » « ولا تدري نفس ماذاتكسب غدا ولا تدري نفس باي ارض تموت » .

ان نجيب محفوظ لا يعطي جوابا مباشرا عن السؤال ، ولكن من الممكن ان نستوحي من قصصه انالانسان عاجز عن معرفة الغيب وما خط فيه من قدر ، ولعجزه هذا فانه لا يستطيع مجابهة القدر . فلا يبقى امامه اذن كيلا يؤرق نفسه ويمزقها بالاوهام والخيالات الا ان يطمئن لراسم القدر ما دام يؤمن بان الله خالق الانسانهو الخير المطلق.

ولا يعني هذا الايمان بالقدر في مسألة الموت والتسليم له، تسليم الانسان امام ما يحكم حياته من ظروف اجتماعية . لا .. لان الانسان قادر على تغيير مجتمعه ولكنهغير قادر على الفرار من قدر الموت . وعليه فان الدعوة الى الايمان بالقدر ليست هروبا ولا سلبية وانما هي انتصار الانسان على مخاوفه واعتراف الانسان بحدود امكاناته مما يمكنه من العيش براحة واطمئنان .

(1) ص ٩٠ (2) ص ٢١٣ (3) ص ٢١٥

وليست مشكلات الكون وحدها هي التي تؤرق الانسان وتحيره،فأن هناك مشكلات مجتمعه وعالمه . وهي تبدو كثيرة لا تكاد تنتهي وكانما كتب على الانسان ان يعاني وانيستمر في البحث عن حل .

هذه المشكلات في اصلها ناجمة عن اختلال التوازن في الانسان والمجتمع والعالم مما سبب حدوث انحرافات وامراضا تفتك بالانسان . ويبدع نجيب محفوظ في عرض هذه الانحرافات والامراض وكشفدقائقها بشكل يجعل القارىء على وعي كامل بها . كما يحرص كاتبنا ايضا على توجيه القارىء الى استنكارها ومحاربتها في محاولة منه للاصلاح .وهذا هو الالتزام في الادب ويبدو محفوظ في قصصه التي تتناول المجتمع والعالم ثوريا كاشد ما تكون الثورية وفيلسوفا يحلم بالاصلاح الاجتماعي ويدعو اليه آملا في ان تتحقق الصور التي رسمها له في فكره .

ونلاحظ عند قراءة قصص نجيب محفوظ ان الشعور الذي يبقى في نفس القارىء بعد رؤية الانحراف مزيج من الاشمئزاز والانحراف والاسى ، على الانسان . ويشتد الشعور بالاسى عندما يحس القارىء ان المجتمع فرض الانحراف وان الانسان لم يستطع الهرب من مصيره المظلم . وهكذا تشتد في بعض القصص كفاتل والجبار قبضة الفساد الاجتماعي فتسحق الانسان ، بينما تبدو فيقصص اخرى وكان الانسان ساهم فيها باستسلامه لها وانضمامه لقوتها كما في قصة زينة (1) . ولئن اقتصر محفوظ في هذه القصص الثلاث على عرض المظاهر والاشارة للاسباب فانه في قصة حنظل والعسكري تجاوز ذلك الى عرض تفصيلي لطريق الاصلاح في شكل حلم طوباني رائع . وعلى كل حال فان عرض المظاهر والاشارة للاسباب كاف لدفع القارىء الى استنكار هذا الفساد الاجتماعي والعمل لاصلاحه وهنا تتجلى قيمة ادب محفوظ وثوريته .

مظاهر الفساد كثيرة نراها في صور عدة .. صورة الصحفي الذي يبيع قلمه لشركة ادوية تريد اللعب علىالناس . صورة الفتاة التي تبيع نفسها لمدير شركة عجوز . صورة القصصي الذي يبيع ادبه لعصابة انتاج سينمائي . والصور الثلاث في قصة « زينة » . ثم صورة الانسان الذي يبيع خنجره لعصابة ويغدو قاتلا كما قالفيقصة «قاتل». فاذا اضفنا اليها صورة البغي تبيع جسدها والامام يبيع ضميرهولسانه في قصة « الجامع في الدرب » ، نلاحظ ان العامل الاقتصادي مشترك في جميع هذه الانحرافات . ولا شك في ان لهذا العامل اثر قوي في المجتمع خصوصا اذا اختلت مقاييسهوباتت السلطة فيه للقوة الاقتصادية . وعند ذلك وكرد فعل لسيطرة المادة تمسخ نماذج بشرية كثيرة وهي تقبل على التملك باذلة في سبيله كل قيمها الانسانية .

ويجب ان نلاحظ ان جميع النماذج التي يعرضها محفوظ موجودة في مجتمعنا الذي سادت فيه ـ ولا تزال في اكثر قطاعاته ـ النفسية الرأسمالية بحيث اصبح مثله الاعلى رأسماليا وديست القيم او مسخت تبعا لهذا المثل الاعلى . ونجيب محفوظ يدعو الى مجتمع تزول فيهسيطرة رأس المال وتعود فيه القيم الىاشراقها لتحكم سلوك بني البشر وتوجههم فتسعدهم .

وقد شعر محفوظ بخطورة سيطرة المال فاطلق صيحته على لسان القصصي في قصة زينة قائلا « اني اود ان اكتب عن المال باعتباره قولا مخيفا يلتهم القيم الجميلة بلارحمة كالخلق والجمال والروح » . وفي « زينة » يقابلنا نموذج محمد بدران الصحفي ، وسرعان ما نلاحظ مثله الاعلى عند دخوله غرفة مديرالشركة وملاحظته تكييف الهواء فيها « وسرعان ما وعد نفسه بتركيب جهاز تكييف في حجرة مكتبه حالما تتحسن الاحوال عما قريب ان شاءالله .. وكالعادة انثالت على ذهنه احلام الثراء بلا تحفظ فاكملت ما ينقص حياته من الرفاهية ، شقة جديدة في حي راق بعيدا عن روض الفرج طبعا . اثاث فاخر ، مطبخ امريكاني ، بار امريكانيايضاء سخان ، فريجيدير كبير ، سيارة ، شقة دائمة بالاسكندرية للتصييف ولعطلات المواسم فيبقية الفصول : ولسبب ما خطرت بباله الفتاة الجميلة التي رآها في مدخل العمارة امام

(1) ص ١٣٥

المصعد . ما اجمل ان « يملك» الانسان صديقة مثلها .. » ولنقف عند تعبير « يملك » الذي اصبح المثل الاعلى . وفي سبيل هذه الملكيـــة باع محمد بدران قلمه .ومع توالي عملية البيع لم يبق من المثل السليمـة شيء .لذلك نراه عندما خرج وفي جيبه المال متوجها للمجلة « لـم يكن في ذهنه الا المشكلات الخاصة بالمجلة التي عليه ان يحلها قبـل هبوط الليل . في زمن بعيد نسبيا كان يفكر طويلا بعد تناول مثل هذا المظروف ، على الاقل كان يقارن بدهشة بين حاله حين تخرجه في الجامعة والتحافه بالعمل مخمورا بأسمى الامال ، وبـين حـاله التي صار اليها حين لم يعد لشيء قيمة الا السيارة وجهاز التكييف وتعليم الاولاد فـي الكلية الاميركية . » ولا شك في ان الاشارة للكلية الاميركية هنا بالغـة الروعة فهي تربط المثل الاعلى المادي بالنظام الرأسمالي الذي تمثلـه اميركا . وتنتشر مثل هذه الاشارات في قصص محفوظ ولا يتسع المجـال لسردها وتبيين روعة فنه .

ثم نلتقي بزينب التي اقدمت على بيع نفسها للمدير بدفع من امها، فنلمس تعاستها وتجاذبها بين الاستقامة والسقوط ، ذلك لانها في اول الطريق ، ومثلها شعر محمد بدران عندما اخذ المظروف اول مرة .«وكانت رغم مطاوعة الامور تجد قلقا واحساسا كأنه التقزز ، لكنها ابتسمت الى عينيه المكللتين بحاجبين اشيبين ، عينيه الحادتين رغم الكبر ، وقاومـت النفور المستقر في شعورها والذي جاء معها من الطريق ، بل من البيت، رغم محاولاتها القوية في مغالبته بالاحلام الخيالية المتألقة كالماس . » وكانت قد فسخت خطبتها لقريب بسبب اغراء المال وخوفا من ان ينكشف شيء في ماضيها . ويتحدث المدير بنبرة مبتهجة بلسان المال « لن تندمي على ما فات امك حكيمة وانت كذلك أن متاعب الحياة لا تفض كما يزعـم الحمقى في الصحف ، ولكنها تفض بالارادة الحية ، ارادة شخص ذكـي مثلك . » وهو لسان الانسان الذي اكمل بيع نفسه للمال . امـا ماذا يزعم الحمقى في الصحف فهي عند مثله « احاديث كألف ليلة وليلة عـن اصلاح المجتمع والكون . » ويمنيها بشيء ملموس « وستكون متع الدنيا بين يديك ! صدقيني ان المال هو سر بهجة الحياة .. » .

ثم نلتقي بالاستاذ وديع القصصي يدخل مقر عصابة الانتـــاج السينمائي . ونلمس تمزقه وهو يرى عملية مسخ وتشويه قصته .وكدأب الانسان عندما يقهره الشر يتساءل من خلال تنهدة لم تسمع « عن ذلـك الركن من الدنيا الذي تجري فيه الامور على طبيعتها وتنطلق الطيـور مغردة بلا خوف ولا جهل ولا طغيان ، ولم يداخله شك في انه سيجـد هناك الفتاة الجميلة التي عايشت خياله حتى أثملته . » ويجتمع افـراد العصابة المخرج والموزع والمنتج والممثلة وجميعهم يمثلون النماذج المنحرفة التي تعيش في الفساد الاجتماعي وتتخذ مثلا اعلى ماديا هو المال ومـا ينتج عنه من لذائذ حسية ويتساءل وديع « متى تنقوض سيطرة الطفاة. متى يمكن ان يفكر محمد طنطاوي (المخرج) كانسان ؟ متى يحل فـي رأس مسيو دزرائيلي (الموزع اليهودي) شيء غير الارقام والنقود ؟ متى تقلع عواطف زهدي عن العادات المتأصلة التي اكتسبتها في بيت الهوى الذي انتشلت منه الى عالم الفن ؟ متى يكف مجدي السيد عن انتـاج الافلام كعربون لعشق جديد ؟ متى تقف هذه العوامل كلها عن التدخـل في فبركة القصص ؟ » ويعيش القارىء عملية تحضير فيلم سيكون وباء على الجمهور ، ويتألم لمعاناة وديع الذي لا يكف لحظة عن التمزق اللهـم الا عندما يقدم له «الشيك» المخدر « فتناوله وهو يستشعر اول نسمـة باردة في هذه الجلسة الجهنمية . » ويطلب المخرج منه قصة اخـرى « عذاب جديد في سبيل رزق جديد ، كم يسره هذا الطلب وكم يحزنه.» لذلك يفكر بكتابة قصة « عن المال باعتباره غولا مخيفا يلتهم ألقيـم الجميلة .. » ويبلغ انحراف المخرج حدا يجعله يرحب بهذه الفكـرة ليشترك بها في جائزة وزارة الثقافة .

هذه القصة لها اهميتها الكبيرة ، فهي تعالج واقعا قائما في المجتمع العربي الذي يتطلع الى بناء المجتمع المتكافل الذي تسود فيه الكفايـة والعدل . وهي صرخة قوية تنبه افراد المجتمع والمسؤولين فيه عن مواطن الداء . ويخرج القارىء منها وقد استشعر خطورة رأس المال في احداث الانحراف ، وبقدر ما يركز محفوظ على تصوير المال بانه سبب كـل سعادة ـ في نظر المنحرفين ـ بقدر ما يخرج القارىء من احداث القصة باحتقار وثورة على هذا الغول المتسلط . وقد عالجت القصة قطاعات كبيرة في مجتمعنا المتطور . فالصحافة في مجتمع الكفاية والعدل لهـا دور كبير وتضم قطاعا كبيرا ويجب تخليصها من الانحراف . والعامـلات اصبح لهن مجال واسع ويجب حمايتهن من الاستغلال . والسينما لهـا اهميتها وسيطرتها على الجمهور ويجب ان ينقذ الشعب من اخطارهـا الناجمة عن استغلال المنحرفين لها . وان اول خطوة في طريق الاصلاح هي في ابراز المثل الاعلى الحقيقي لمجتمع الكفاية والعدل وتحطيم هذا المثل الاعلى المنحط المتمثل بالمال . ولقد وفق محفوظ في تسمية القصة « زينه » التي قد يظن انها تصغير لزينب بطلة اللوحة الثانية في القصة، ولكنا نرى ان الاسم حمل توجيها ورمز للمال واستمده اديبنا من الايـة الكريمة « المال والبنون زينة الحياة الدنيـا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا » .

ما مدى مسؤولية هؤلاء الافراد في انحرافهم ؟ يبرز هذا السؤال عند التفكير بالاوضاع والظروف المحيطة بهم ، ونجيب محفوظ يركـز على دور المجتمع في دفعهم الى الانحراف تماما كما ساد في مجتمعنـا ان امثالهم ضحية الفساد الاجتماعي . ويبدو احيانـا ان قـدر المجتمع قوي كقدر الموت بحيث لا يمكن الفرار منه . ومع ذلك فنحن نعتقد أن المسؤولية الفردية قائمة دوما فانسانية الانسان تفرض عليه الا يستسلـم بسهولة وان يبحث عن الهواء النظيف ليتنفس منه وان يتكاتف مع اخوته السائرين في طريق الخير ليجابهوا الضغط الاجتماعي المنحرف ويعملوا على تغيير واقعه .

وفي قصة « قاتل » (١) نرى قوة « قد رالمجتمع » تدوس الانسان وترسم طريقه وتحدد مصيره .ويظهر فيها اثر العامل الاقتصادي مـرة اخرى ، كما يظهر فيها اثر عدم وجود التكافل الاجتماعي في القضاء على اخر ذرة صلاح في النفس الانسانية.

ولكن هل يمكن الفرار من قدر المجتمع المنحرف ؟ ان الفـرار ضروري لانقاذ الانسان ، ولا يتأتى الا بالعمل على تغيير قيم المجتمـع ومثله او بتعبير اخر اصلاحه .ونجيب محفوظ يحلم بمجتمع تحكمه القيم والمثل السليمة ويعيش فيه الانسان بسلام ، ومثل هذا المجتمع كفيـل ايضا بشفاء المرضى من ابنائه واتاحة حياة جديدة سليمة لهم . وقـد بلغ في قصة « حنظل والعسكري » غاية الروعة وهو يصور احلامه .

هي قصة « حنظل » (٢) المدمن على المخدرات وهو يرويها في حوار داخلي ، فتبدأ بوصف خوف من صوت اقدام الجاويش بينما جسـده يحترق رغبة في الحقنة المحرمة . ويأتيه الشاويش فيشتد خوفه ولكنه يفاجأ به يضع على منكبيه يدا ادمية لا حديدية ولا عسكرية ويطمئنـه وهو يأخذه الى المأمور ، ومعاملة المأمور ـ وهو في دهشة بالغة ـ معاملة انسانية فيجلسه . ويعبر محفوظ عن مأساة الانسان في المجتمع الفاسد علـى لسان حنظل وهو يقول « يا حضـرة المأمور انا رجل مسكين ، كثير الخطايا ، ولكن بؤ سي افظع من خطاياي والرحمة عند الله مفضلة على العدل . » ويرد المأمور بنبرة جادة ورقيقة بقول يمثل العزم على الاصلاح « اطمئن يا حنظل انا عارف انك اخطأت كثيرا ولكنك قاسيت اكثر ، وانت ادرى بذنوبك ، والشاويش معذور في قسوته عليك ، فالقانون هـو القانون ، ولكن جرت امور اوجبت تغيير المعاملة ، تغيير كل شيء ، ونحـن كما ان لنا جانبا عسكريا فلنا في ذا ت الوقت جانبنا الانساني » ما هـي الامور التي جدت ؟ الا تكون بدء بناء المجتمع الجديد .. وما اروع ان يبرز الجانب الانساني فيوازن الجانب العسكري ، وما اروع ان يعتـرف صاحب السلطة بمقاساة الانسان وهو يستعرض خطأه ، وحنظل قاسـى كثيرا « كنت قويا فضعفت وبياعا فافلست ، واحببت فتلوعت، وادمنت، ثم تسولت » والمجتمع الجديد يعالج هذه الحالة بنفسية بناءة تريد أن

---

(١) ص ٩٥

(٢) ص ٢١٧

تنقذ الانسان . وهكذا يطمئنه المأمور ويعده بانه سيخرج من المصحة رجلا جيدا ، وينال حنظل احسن معاملة ثم يشفى ويعود الى المأمور الذي يقول له « الان تستطيع ان تبدأ من جديد .. » ثم يقول له « اطلب ما تشاء يا حنظل » فيذكر حنظل انه كان يعمل على عربة فاكهة ، فيعطيه المأمور ، دكان فاكهة بالحسينية، رفوف مزدوجة ، كهرباء لحسن العرض». وهكذا امنت له الدولة العمل ، ويعبر حنظل عن خشيته من العساكر ، فيطمئنه المأمور « لن تجد في العساكر عدوا واحدا لك ، هم من اليوم والى الابد اصدقاؤك المخلصون . » وهكذا اعطته الدولة الاطمئنان والامن . ولا ينسى حنظل اخوانه الفقراء في خضم اقبال الخير عليه « امثالي من الفقراء كثيرون لعلك يا حضرة المأمور لا تعرفهم » فيقول المأمور « اعرف كل شيء دلنا عليهم وسيكون لكل دكانه وامرأته وصداقة العساكر » وهكذا تعهدت الدولة بمجتمع العدل . ويذكر حنظل حبيبته سنية بائعة الكبدة فيعده المأمور بالزواج منها ولتعمل معه في الدكان ببيع الكبدة . وهكذا وفرت له الدولة السكنى والمودة . ويعيش حنظل في غمرة فرح ويحتفل بزواجه ولكنه عندما ينفرد بسنية ويعانقها يشعر بضغط يديها فيتضايق ثم يستيقظ من حلمه على صوت عسكري يمسكه من عنقه ويقسو في معاملته . لقد كان ما رآه حلما .

نلاحظ ان في « قاتل » صور محفوظ الواقع المر بينما صور في حنظل والعسكري المستقبل المنشود . والمستقبل المنشود الذي ترعى الدولة فيه الافراد بينما يتخبط الفرد تائها في الواقع المر لا يزال حلما . ترى هل سيتحقق حلم محفوظ ؟ ان دولة المجتمع الاشتراكي تضع هذا الحلم نصب اعينها وبقي ان يتكاتف الجميع لتحقيقه .

وبين الواقع القائم والمستقبل المنشود طريق تتم فيه عملية التغير الاجتماعي الذي لا يحدث فجاة ، ولكن يجب بذل اقصى الجهود ليتم بسرعة . ولقد اراد نجيب محفوظ ان يعرض ما وصلت اليه عملية التغير الاجتماعي في محاولة لتحديد المكاسب ومعرفة المعوقات .

ان اخلاص محفوظ في نقده الذي يرمي الى ازالة العيوب من الصورة الجديدة مع المحافظة على المبدأ الذي تقوم عليه هو خير دافع للثورة الى الامام حتى تحقق بناء المجتمع الجديد .

ذلك هو انسان دنيا الله في مجتمعه . انه يعاني من وجود انحرافات تسيطر على المجتمع . وهو يتطلع الى مستقبل افضل ، ومهما حاول هذا الانسان الانعزال فانه لا يستطيع الانفكاك عن الناس ولذلك فالانعزال ليس حلا لان اثار الانحراف لا بد وان تصله .

ولكن العالم اليوم في القرن العشرين الذي عمت فيه المواصلات ووسائلها السريعة ، اصبحت اجزاؤه وثيقة اتصال ببعضها حتى بات كانه مجتمع انساني واحد ، لذلك فان اصلاح المجتمع المحلي لا يكفي لانقاذ الانسان لان اي خلل يحدث في اي جزء من العالم يؤثر عليه. ولهذا فان نجيب محفوظ يتجاوز في دراسته لمشاكل انسان دنيا الله مجتمع الوطن الى المجتمع العالمي كله ، ويربط الانسان به . فكاتبنا هو ابن القرن العشرين الذي ينطلق من نظرة انسانية عالمية .

تجلت هذه النظرة في قصة « مندوب فوق العادة » (١) حيث يطالعنا رجل في الستين يزور وزارة الاوقاف في صباح احد الايام في سنوات الحرب الثانية ، ويقدم نفسه باسم « اسماعيل بك الباجوري مستشار برياسة مجلس الوزراء » . وهو يقول للموظف الجامعي الجديد انه قادم للتفتيش . ويجري بينهما حديث يكشف فيه المندوب فساد الوضع في الوزارة ، ثم يطرح مع الشاب قضايا الحياة ، فيسأله : لم توظفت ؟ ولما لم يجب يقول له ـ قل لاعيش ، كلنا يريد ان يعيش ، لكن الحياة تجري على غير ما يجب » . تلك هي مشكلة الانسان في مجتمعه وفي العالم . وبعد قليل يقول الباجوري « على المرء ان ينشد الطمأنينة والصفاء ولكن كيف يتأتى هذا ؟ » وهذا هو تساؤل الانسان . وعندما يدعو له الموظف بالصحة يجيبه بما يوضح سر شقاء الانسان . « الصحة! ما هي الصحة ؟ هي كمال التوازن والتوافق والتعاون في الكائن ، ولكن هيهات ان تتحقق اذا كانت الصحة العامة معتلة » . وهنا ربط محفوظ بين الانسان وما يحيط به. ويضرب مثلا بصحة الوزارة المعتلة وهي بالطبع تؤثر على كثيرين ، ثم يتجاوزها الى العالم « العالم ايضا صحته معتلة ، هتلر ورم خبيث ، والحلفاء ورم اخر ، والاوقاف عندكم لماذا يستحق بعض الاوباش هذه الالوف المؤلفة » . وفي محاورة اخرى يحاول الاشارة الى مبادىء الحل الذي يعيد الصحة الى سلامتها . يسأل الباجوري الشاب عما يريده من الدنيا : ان الانسان يريد النقود والصحة . ولكن كم من النقود يكفيه ؟ « حسبي الضروريات والكماليات الهامة ، وان اتمكن من تكوين اسرة » ونلاحظ هنا ان هذا كان ضمن مطالب حنظل . ويقول الباجوري ملفتا النظر الى من يحيط بالانسان « والاخرون الا ينبغي لهم ذلك ايضا ؟ » بالطبع ، وهذا ما فكر به حنظل عندما لفت نظر المأمور الى وجود فقراء كثيرين . ولو تم تأمين ذلك للجميع فعندها « ترتاح النفوس من الانفعالات الخبيثة . » ولكن هل تنتهي المشكلة ؟ لا لانه يجب تأمين سلامة العالم كله . ولهذا يقول المندوب « لا يكفي هذا كله سيظل هناك هتلر وتشرشل ايضا ، هذه هي العقدة المحيرة .. كلما وجدت حلا لمشكلة عرضت مشكلة اخرى .. كأن الرحلة يجب ان تشمل العالم » « نعم العالم ، راقب اثار الحرب في بلادنا ان كنت في حاجة الى دليل .. فكر في ان تنعم بالجبال في سويسرا فيقال لك انها مهددة باجتياح الجيوش الالمانية ... » . والغلاء استشرى . فما الحل ؟ بتحديد المرتبات « ولكن الدنيا ليست موظفين فحسب ، هناك تجار ورجال صناعة واصحاب اراض وهناك ايضا الاجانب ثم هتلر وموسوليني وتشرشل واكاذيب لا حصر لها ، وصرخات زنوج تصم الاذان . » واخيرا يتحدث عن العلة الاصيلة « ان عيبنا انا نفكر في انفسنا ولاشيء غير انفسنا ، الحق ان لي من القدرة ما استطيع به ان ابلغ الصيفاء علي فقط ان اعتزل العالم وهمومه .. لكني لا استطيع ، لا اريد ، للهموم ايضا انغامها التي يلتقطها القلب ، فاما صحة عامة او لا صحة على الاطلاق هذه هي عقيدتي النهائية ، ولذلك كلفت بالمهمة . » وهنا تظهر ايجابية محفوظ وعظمته وهو يحدد الهدف النهائي للانسان .. صحة عامة في العالم اجمع يعيش فيها الناس جميعا بسعادة . ولا يقلل من عظمة هذا الهدف ان المندوب فوق العادة كان مجنونا فانه نطق بالحكمة « وخذوا الحكمة من افواه المجانين . ولا سبيل للوصول الى هذا الهدف الا بعد القضاء على العيب الاكبر وهو اننا نفكر في انفسنا ولا شيء غير انفسنا . ان هذا العيب هو الذي سبب المآسي في التاريخ البشري . كل دولة تفكر في مصالحها دون ان تهتم بمصالح غيرها .. وهكذا كان الاستعباد والاستعمار وبناء الامبراطوريات . كثير من الحكام يفكرون بانفسهم فيسحقون شعوبهم ، وامثلة لا تنتهي . ان النظرة الانسانية الشاملة التي ينطلق منها محفوظ هي التي ستنقذ العالم ، وهناك امل في ان يتبناها كثيرون ، وقد بدأنا اليوم نسمع عن التفات الدول الغنية للاهتمام بمشكلة الفقر عند الدول المتخلفة . وهذا دليل على انهم لم يجدوا مفرا من الاهتمام بالصحة العامة اذا ارادوا لانفسهم الصحة ، ولكن هذه البارقة لا تطمئن لانها مستندة على نظرة انانية استعمارية . وان الذي سيحل المشكلة قيام دول تتبنى القضية ايمانا منها بالاخوة الانسانية وبان هذا العالم يشكل مجتمعا واحدا ، وبان من رسالة الانسان ان يعمل لاسعاد الانسان .

لقد عاش محفوظ مع انسان دنيا الله في بحثه في المسائل التي يثيرها الكون . وعاش معه في مجتمعه الصغير والكبير . وفي خلال ذلك غاص الى اعماقه ليكشف ادق خلجات نفسه . ولا شك في ان النفس الانسانية عالم رحيب حافل بنوازع كثيرة . فللانسان اشواقه واحلامه ، وللانسان عقده وشهواته ، وللانسان طاقاته ، وله وهو يعيش في مجتمع حافل بالانحرافات مشاكله الكثيرة .

ومحفوظ يعري النفس الانسانية في كل قصصه ، لذلك يكثر فيها الحوار الداخلي . وفي قصص « دنيا الله » نرى الانسان في حبه للحياة وفي خوفه من الموت، في تطلعه الى الامن والسكينة وفي معاناته

(١) ص ٢٣١

من الظلم والشقاء ، في مطلبه الملح للصفاء ، في انحرافاته وفي عودته للصراط . ويصعب علينا ان نتناول هذه النواحي بالحديث التفصيلي لاننا سنجد في كل كلمة احيانا غرضا معينا ، وسنجد وراء كل كلمة جانبا من العالم الرحيب ، ويكفي ان نشير لحديث « جمعة » في قصة « موعد » مع نفسه بعد ان عرف بقرب نهايته ، والى حديث حسين ضاوي مع نفسه ،وحواربيومي مع نفسه ، ومحسن مع نفسه واحاديث بقية شخوص نجيب مع انفسهم .

وفي قصة « دنيا الله » (1) نرى انسان دنيا الله في المجالات الثلاثة الكون والمجتمع ونفسه . فعم ابراهيم الفراش يعمل في احدى الادارات مع عدد من الموظفين يمثلون قطاعا في المجتمع ، ولكل اسلوبه في الحياة ومشاكله . وفي صباح احد الايام يبدو عم ابراهيم وهو ينظف الادارة وكان شيئا يعتمل في نفسه . وبعد ان يقدم محفوظ شخوص الادارة بطريقة رائعة تحدث المفاجأة عندما يذهب عم ابراهيم لاحضار مرتبات الموظفين ولا يعود . وفي اثناء ذلك نأخذ صورة واضحة عن ذلك المجتمع . ثم ننتقل الى عم ابراهيم في ابي قير حيث فز مع فتاة في السابعة عشرة اراد ان يشعر معها وهو ابن الخامسة والخمسين بالسعادة . ولم تكن تلك الفتاة نتيجة نشأتها المنحرفة في مجتمع فاسد بالفتاة الطيبة ، ومع ذلك تشبث عم ابراهيم بالسعادة . « ربما حام حوله كدر » من تصرفاتها« ولكنه كان مصمما على السعادة ، السعادة التي يدرك اكثر من غيره كم هي زائلة . » وكان الحب طريقه للسعادة، وهو الطريق الذي يحدده دومانجيب محفوظ ، فبعد أن عاش مشاعر الحب رأى ما لم يكن يراه « كان من قبل يسير مطرق الرأس لا يرى من الدنيا الا التراب والطين ، او لا يرى الا شواعله وهمومه . اما هنا فرأى ما لم يكن يراه . رأى الفجر في طلعته السحرية والغروب في عجائب الوانه التي تنساب من الشفق . ورأى النجوم الساهرة والقمر الساطع والافاق اللامتناهية . رأى ذلك كله بقوة الحب الخالقة التي عجب كيف يوجد بعد ذلك الندم . ولكن سعادته لم تدم ولم يكن ممكنا لها ان تدوم . فحتى الفتاة ارادت سرقة ما تبقى معه من مال ، وكان الحياة تضن عليه بالايام القليلة الباقية معها . لذلك يسرحها مع المال ويسير الى مصيره ليقبض عليه في الاسكندرية .

ما الذي دفع عم ابراهيم الى هذه الفعلة . ان يرتكب جريمة سرقة ؟ هل هو الشرفي نفسه . ان القارىء لا يشعر بان عم ابراهيم شرير . انه ابن مجتمعه اخذ منه كله وورث عنه حسناته . ولقد كان في تصرفه كأنه فاض يحاسب موظفي الادارة التي يعمل فيها ، ويكفي للدلالة على جانب الانسانية في نفسه انه ابى ان يسرق مال « احمد » الموظف الفقير المستقيم صاحب العيال . ويبلغ محفوظ اعلى الذرى في وصفه لعودة احمد محطما واكتشافه ان عم ابراهيم اتى بمرتبه — ولكن لم يجد غضاضة في اخذ مرتبات الباقين ومنهم المرتشي والانتهازي والغني . كذلك فان عم ابراهيم يتساءل بالحاح وهو يسير الى مصيره « لماذا ؟ » سؤال انسان دنيا الله الخالد في بحثه عن القدر وتصاريفه وفي محاولته لحل الالغاز التي تحيط بتعاسة الانسان . وهو يتوجه لخالق البشر في مناجاته . فبعد ان وصل الاسكندرية دخل مسجد ابي العباس « وصلى ركعتين ثم جلس موليا وجهه نحو الجدار . كان يعاني حزنا جليلا ويأسا رائعا . وناجى ربه همسا « لا يمكن ان يرضيك ما حصل لي .ولا ما يحصل في كل مكان . صغيرة وجميلة وشريرة (يقصد الفتاة) ايرضيك هذا ؟ وابنائي اين هم (وقد فقدهم جميعا) .. ايرضيك هذا ؟والعالم يطاردني لا لشيء الا لاني احبك فهل يرضيك هذا ؟ واشعر وانا بين الملايين بوحدة قاتلة .. ايرضيك هذا ؟ » مسكين انسان دنيا الله كم يقاسي. وان القارىء ليشعر بقرب عم ابراهيم من ربه في تلك المناجاة ، كما ان نجيب محفوظ يرى ان ظروف الانسان في مجتمعه تتفاعل في نفسه لتفرض عليه افعاله فيسير في طريق لا مفر له من السير فيه وذلك هو قدره . لذلك يجيب عم ابراهيم عن سؤال المخبر له لماذا فعل تلك الفعلة وهو في هذا العمر بغمغمة« الله » وهو يرفع اصبعه الى فوق .

كأنا بنجيب محفوظ الذي جاب دنيا الله الواسعة وحل الكثير من الغازها يشعر بانه لا يزال هناك الغاز لم يوفق الانسان لحلها وستبقى مغلقة عليه لا يصل الى علمها. فعلمها عند خالق كل شيء .. عند الله وحده .

هذا يقودنا الى القصة الباقية في « دنيا الله » وهي قصة « زعبلاوي » (1) التي اغرق محفوظ في رموزها .

ففي خضم عيش انسان دنيا الله عمره لا بد وان يصيبه الداء الذي لا دواء له فيطفق يبحث عن الخلاص فماذا يجد ؟

في « زعبلاوي » نلتقي بالانسان عندما بدأ البحث .

« اقتنعت اخيرا بان علي ان اجد الشيخ زعبلاوي » . واسم زعبلاوي ورد في اغنية « الدنيا مالها يا زعبلاوي شقلبوا حالها وخلوها ماوي » .

من هو زعبلاوي ؟ ولماذا يبحث عنه هذا الانسان ؟ انه يقول عن سبب البحث :

« جرت الايام فصادفتني ادواء كثيرة وكنت أجد لكل داء دواء بلا عناء ، وبنفقات في حدود الامكان ، حتى اصابني الداء الذي لا دواء له عند احد ، وسدت في وجهي السبل وطوفني اليأس .. »

وكان قد سأل اباه وهو في طفولته عن زعبلاوي فقال له :

« انه ولي صادق من اولياء الله ، وشيال الهموم والمتاعب ، ولولاه لمت غما » .

ويشرع في البحث سائلا نماذج عرفت زعبلاوي ، ومحفوظ يشير القارىء ليكتشف زعبلاوي هذا . فلنحاول حصر صفاته لعلنا نصل الى نفسير هذا الرمز .

انه ولي طيب يقول عنه الشيخ قمر الرجل الذي اختار طريق التدين « كان ذلك في الزمان الاول ،وما اكاد اذكره اليوم » « وكنا نراه معجزة » . ويقول عنه بائع كتب قديمة دينية وصوفية « زعبلاوي يا سلام ، والله زمان ، كان يقيم في هذا الربع عندما كان صالحا للاقامة ، وكان يجلس عندي كثيرا فيحدثني عن الايام الخالية ، واتبرك بنفحاته.» ولقد تحسر اخرون على ايامه الحلوة بينما نعته البعض بالدجل وسخروا منه بلا حيطة ونصحوا صاحب الداء ان يعرض نفسه على دكتور .ويقول عنه شيخ الحارة « على كل حال فهو حي لم يمت ، ولكن لا مسكن له ، وهذا هو الخازوق،ربما صادفته وانت خارج من هنا على غير ميعاد وربما قضيت الايام والشهور بحثا عنه دون جدوى . » « انه رجل يحير العقول ، ولكن احمد ربنا على انه ما زال حيا . » ويقول عنه حسنين الخطاط « كانيا ما كان ، الرجل الغز ، يقبل عليك حتى يظنوه قريبك، ويختفي فكأنه ما كان ، لكن لا لوم على الاولياء » . « لازمني عهدا حتى خلت انني ارسمه فيما ارسم ولكن اين هو اليوم ؟ » « هو حي بلا ريب ، وكان له ذوق لا يعلى عليه وبفضله صنعت اجمل لوحاتي » « في وجهه جمال لا يمكن أن ينسى ولكن اين هو ؟ » ويقول عنه الشيخ جاد الملحن المعروف « زارني منذ مدة ، قد يحضر الان ، وقد لا اراه حتى الموت . » « هذا الرجل العجيب كل من يريده ، كان امره سهلا في الزمان القديم عندما كان يقيم في مكان معروف ، اليوم الدنيا تغيرت ، وبعد ان كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل ، فلم يعد الوصول اليه بالشيء اليسير ، ولكن اصبر وثق بانك ستصل .. » « هو الطرب نفسه ، وصوته عند الكلام جميل جدا ، ما ان تسمعه حتى ترغب في الغناء ، وتهيج اريحية الخلق في صدرك..» ويسأل الانسان « وكيف يشفي من المتاعب التي يعجز عنها البشر ؟ » فيأتيه الجواب « هذا سره ، ولعلك تظفر به عند اللقاء » . ويصل الانسان في بحثه الى ونس الدمنهوري الذي يسهر في حانة النجمة . ولا يرضى ونس بالحديث حتى يسكر السائل ثم ينام ويحلم حلما جميلا

(1) ص ٥

(1) ص ١٥٧

لم يحلم بمثله من قبل « حلمت بانني في حديقة لا حدود لها ، تنتشر في جنباتها الاشجار بوفرة سخية فلا ترى السماء ، الا كالكواكب خلل الاغصان المتعانقة ويكتنفها جو كالغروب او كالغيم . وكنت مستلقيا فوق هضبة من الياسمين المتساقط كالرذاذ ، ورشاش نافورة صافينهل على رأسي وجبيني دون انقطاع ، وكنت في غاية من الارتياح والطرب، والهناء ، وجوقة من التغريد والهديل والزقزقة تعزف في اذني ، وثمة توافق عجيب بيني وبين نفسي ، وبيننا وبين الدنيا فكل شيء حيث ينبغي ان يكون بلا تنافر او اساءة او شذوذ ، وليس في الدنيا كلها داع واحد للكلام اوالحركة، ونشوة طرب يضج بها الكون .. » ويستيقظ من هذا الحلم الرائع ليعلم انزعبلاوي كان قد حضر اثناء نومه وعطف عليه فبلل رأسه بالماء وكان يتنزل بعقد من الياسمين اهداه اليه احد المحبين . واخيرا فان زعبلاوي كما يقول انس « العجيب انه لا تغريه المغريات ولكن سيشفيك اذا قابلته.. بمجرد ان يشعر بانك تحبه » .

وبعد هذا البحث المضني حدد الانسان موقفه « قلت علي انانتظر وان اروض نفسي على الصبر ، وحسبي اني تأكدت من وجود زعبلاوي، بل ومن عطفه علي مما يبشر باستعداده لمداواتي اذا تم اللقاء . ولكنني كنت اضيق احيانا بطول الانتظار فيساورني اليأس ، واحاول اقناع نفسي بصرف النظر نهائيا عن التفكير فيه . كم من متعبين في هذه الحياة لا يعرفونه او يعتبرونهخرافة من الخرافات فلم اعذب نفسي به على هذا النحو ؟ » ولكنه يعود ليقول « علي ان اجد زعبلاوي » .

والان من هو زعبلاوي هذا ، وما هو الداء الذي لا دواء له ؟

ان زعبلاوي يورث الابداع ويرزق الصفاء . وان الداء الذي لا دواء له يحيل حياة الانسان كلها شقاء . الا يكون ذلك الداء اليأس يخيم على القلب فيفقد الانسان طعم الحياة ! والا يكون زعبلاوي هو الايمان يمسح الاحزان ويورث الابداع ويرزق الصفاء ؟ وطريق الايمان هو الحب الذي محبته الصوفية ، ومفعوله ان يتحقق التوافق بين الانسان ونفسه وبينه وبين الدنيا فكل شيء حيث ينبغي ان يكون بلا تنافر او اساءة او شذوذ .. ان حلم ذلكالانسان يذكرنا بالجنة كما وصفتها الكتبالسماوية . فهل اراد محفوظ ان يقول بان الراحة الكبرى لن تكون في هذه الدنيا ، خصوصا واوانه لم يحقق اللقاء بين الانسان وزعبلاوي ؟ وهل هذه الراحة الكبرى مجرد حلم انساني ؟ ان محفوظ متأكد منوجود زعبلاوي وعسى ان تهتدي البشرية الضالةاليه.

وهكذا فان على انسان دنيا الله ان يعرف الايمانليسعد فيرحلته.

وبعد .. فان من اهم ما يلاحظ على انسان دنيا الله متمثلا في كل شخوص القصص انه ليس شرا مطلقا كما انه ليس خيرا مطلقا ، ان طبيعته انسانية تعرف النزول وتعرف العلو ، تشتهي السقوط وتتسوق الى الارتفاع . وفي هذا يبلغ محفوظ قمة الواقعية .

والله في قصص محفوظ هو رمز الاعمال الصالحة وهو خالق الانسان الذي يسع علمه كل شيء .

ولقد ابتلي الانسان فيالحياة وعليه ان يدلل على انسانيتهبالجهاد في سبيل الاصلاح والقضاء على الشر . وطريق الخلاص مفتوح امامه فباستطاعته ان يولد من جديد اذا ضل السبيل وبامكانه ان يتزود بالايمان وعليه الا يفكر في نفسه فحسب بل بجميع اخوته بني الانسان في مختلف بقاع العالم .

لقد عاش محفوظرحلة الانسان في دنيا الله وكشف الكثير فيها . وباخلاص ووعي ومقدرة فائقة حدد طريق السير واضعا نصب عينيه هدف اسعاد الانسان .

ان مجموعة « دنيا الله » من روائع قصصنا العربي القصيرة وهي تقف على مستوى واحد مع روائع القصص العالمي فهنيئا لقراء العربية ولكل انسان بادب نجيب محفوظ البناء .

طرابلس الغرب — **احمد صدقي الدجاني**
ماجستير في التاريخ

دار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب : ٣١٧٦ — تلفون ٢٢٧٩٨٣
بيروت - لبنان — ٢٥٧٤٧٠

تتقدم دار الكتاب اللبناني الى المؤسسات الثقافيةووزاراتالمعارف والمدارس في لبنان وسائر البلدان العربية ، بمطبوعاتها الثقافية ومنشوراتها المدرسية في اللغات الثلاث العربية والفرنسيةوالانكليزية ولجميع مراحل الدراسة .

سلسلة الجديد في القراءة العربية : جزءان لروضة الاطفال وخمسة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية) .

سلسلة الجديد فيالادب العربي : اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية) وجزءان لمرحلة التعليم الثانوي (البكالوريا) .

سلسلة القواعد العربية الجديدة : اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية) واربعةاجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية)-.

سلسلة دروس الاشياء والعلوم الجديدة : خمسة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية) .

الجديد في الجغرافيا : اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية) واربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية) وجزءان لمرحلة التعليم الثانوي (البكالوريا) .

سلسلة القواعد العربية : في اربعة اجزاء لمرحلة التعليمالابتدائي تاليف ا. ديب (الشهادة الابتدائية) .

سلسلة التاريخ الجديد : ثمانية اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي والتكميلي (الشهادة الابتدائية والتكميلية) .

سلسلة الحساب الجديد : سبعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية) .

لمرحلة التعليم التكميلي (شهادة البريفه) :

PHYSIQUE, CHIMIE, ALGEBRE, GEOMETRIE, GEOMETRY AND ALGEBRA, PHYSICS AND CHEMISTRY.

الجديد في البحث الادبي (لمنهج البكالوريا) : ابن الرومي ، فنه ونفسيته من خلال شعره (لمنهج البكالوريا) .

MON NOUVEAU LIVRE DE GRAMMAIRE.

ثمانية اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي والعالي (الشهادة الابتدائية والتكميلية) .

MON NOUVEAU LIVRE DE LECTURE ET DE FRANCAIS.

جزءان لمرحلة الروضة ـ خمسة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية).

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية).

THE NEW DIRECT COURSE IN APPROACH TO ENGLISH LITERATURE.

احدث سلسلة لتعليم القراءة الانكليزية : جزءان لمرحلة الروضة واربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي .

THE NEW DIRECT ENGLISH GRAMMAR.

احدث سلسلة لتعليم قواعد اللغة الانكليزية في ثلاثة اجزاء .

الدليل العام لشهادة الدروس الابتدائية :

DICTEES CHOISIES.

حساب، انشاء ، اشياء ، تاريخ ، جغرافية ، املاء فرنسي انكليزي